عيناك قدري

بقلم وداد سكاكيني

الان وقد هدأ اللغط والملق حول هـذه المجموعة القصصية للاديبة الدمشقية غادة السمان أعود اليها مستأنية بتمحيصها ونقدها مبشرة بموهبة مصقولة في حياتنا الادبية الحديثة التي نتفقد في نتاجها ومحصولها الاصالة الفكرية والفنية .

لم اعجب لظهور غادة السمان قصصية مرموقة بعد استكمال دراستها الجامعية ، وقد عجبت لاقتحام هذا المجال بعض الزائفات المرتجلات والمتكلفات ضد طباعهن وضد الحقيقة ، حاسبات أن صناعة الادب التي لم يخلقن لها سهلة المراس والمنال ، ولا يعوزها الا صداقة الندوات واقلام المجاملات ، على ان القصصية غادة السمان التي كنا نرتقب ادبها ماكان اغناها عن ضجيج مصطنع تناول قصصها بالدعاية دون النقدوبالزلفى دون الرأي وهي التي لها من الموهبة والثقافة ما يمكنها من متابعة السير في طريقها الادبي الطويل على ثبت وانطلاق وفن اصيل ،والاديب الحقيقي يهمه انيصاحبه النقد في خطواته ليعرف مراسمها ومواطيء عثراته وضعفه .

لقد حملت « عيناك قدري » طابع الواقع فياسلوب غادة وتوثب ذكائها وطموحها ، ولو ان ناقدا قرأها دون ان يعرفها لاستطاع ان يستخلص من كتابها الاول ملامح فنها وتحليلها الذي لايطيق الاناة ، وكم تندر في الاثار الادبية التي يحتويها الحبر والورق مطالع اصحابها من بين سطورها ، وطالما رأينا تفاوتا بين الاديب ومعالم فنه وتعبيره ، ولما طلعت غادة السمان باول بواكيرها ، وكانت قصصا سألت نفسي : كيف تفتحت ازاهيرها في القصة قبل غيرها من فنون الادب ؟ وهذه ظاهرة لفتت الانظار والافكار في انصراف اكثر الاقلام النسوية الى القصة فحسب دون المشاركة في أي فن سواها الا القليل ، ويبدو انه كان لابد لغادة وقد أوتيت هذه الموهبة الى جانب تمكنها من الدراسة الادبية من البداية بالقصة والتجاوب مع دواعيها فجاءت مجموعتها الاولى بعيدة عن التكلف والركاكة حاملة في أدائها الرشيق صورا اجتماعية معبرة ومعاني تحررية في حياة الفتاة العربية الحديثة .

ومن هذه الناحية يستطيع الناقد ان يلقي الضوء على موضوعات القصص فيتبين ان محتواها تناول التطور السريع الذي استجابت له الفتاة المتعلمة والواعية بعد خروجها من بيئة الحجاب ، فاركة عينيها على وهج ساطع من حياة جديدة وشخصية مستقلة قد امتد الى آفاق متنورة تقبلت تغييرا في بعض المفاهيم التقليدية، فشاءت غادة السمان ان تصور بقصصها وموهبتها الفنية انطلاق الفتاة المتحررة من عنف العادات الاجتماعية لتتحدى القدر المكتوب او التقاليد المرتبطة بما يسمى السمعة في المجتمع، فأخرجت هذه المعاني والصور بحوادث وشؤون تنتفض بألوان صارخة وتنعكس على خطوطها الجانبية والسطحية بفتات من الظلال تصرف القاريء بروعتها عن بنائها الفني بما تترك في نفسه ومدى وعيه من انطباعات وتأويل .

وليس من ريب في ان هذه القصص دلت على قدرة صاحبتها في التعبير وتلوين الموضوع المتشابه او المنتزع من المشاهد اليومية الجديدة في حياة المراهقة والتحصيل والعمل ، فمن احسن ماقرأت في كتاب غادة قصة « الهاوية » التي تختصر فكرتها في لمحات من فتاتين تعملان معا في تحرير مجلة ، احداهما تضرب على الالة الكاتبة ، فاذا ادركها المساء هبت من مكانها ، فترفع اليها زميلتها عينين يرقص فيهما سؤال واحد ، ماذا حدث؟

غادة السمان

لكن المسؤولة تجيب بلهفة ، انتهى الدوام ، وتسحب من حقيبتها مرآة ومشطا ، وتسقط المرآة لاضطرابها وتسرعها ، اذكانت تتخيل بان خطيبها ينتظرها .

اما الثانية فتنحني على الارض لتلملم حطام المرآة ، لكنها تنتفض بأسف ولا تستطيع ان تتمرى ، وقد يؤخذ القاريء بهذا التشويق الذي وفقت فيه القصصية المطبوعة، فهي تدرك بحق وصدق سر الانوثة في أقاصيصها ،وتريد انتصور الانثى على حقيقتها وطبيعتها ولو جاوزت القيود. على أني كنت أخشى وانا اتابع السطور في « الهاوية » ان اكتشف سبب الصدمة التي لقيتها الفتاة الثانية من مرآة زميلتها حتى تجلى وجه القصة عن حادث سيارة مروع حرم هذه الفتاة خطيبها المثال ، واذا هي بعد حين تدلف الى مرسمه وتبغته مع محبوبة جديدة فتطالبه بتمثالها الذي صنعه لها من فيض فنه وحبه ، وتقع نظراته هو عليها فجأة فينتفض وترتعش شفراؤه وهو يسمعها قائلة :

— أريد تمثالي ...

— لن ترى وجهي ..

وتأخذ الفتاة تمثالها الذي احب فيه جمالها ، وتقول

لنفسها : ماذنبه انه فنان يحب الجمال .. ويخيل اليهـــا انها تتبسم له ، لكنها سرعان ماتدرك ان مايرتسم عـــلى المرآة يكشف عن اسنانها المحطمة وعن التشويه في شفتها العليا ، فحز في نفسها ان يضن القدر عليها حتى بالابتسامة حتى احست ان تمثالها يتحداها فبادرت الى غرفتها وهي تخفي وجهها كلما مزق الظلام ضوء سيارة عابرة .

ولما خلت الى نفسها اخرجت مرآة من درج مقفـل وعادت تتطلع الى ملامحها بعنف وألم ، وكأنها تتحـــدى العالم حتى تفجر من صدرها حنق مسعور فطرحت مرآتها ثم تناولت منها قطعة لتطعن فيها التمثال الذي كـــان يعذبها ، واخذت تشوه الوجه مهتاجة يائسة والتمثال تحت قدميها صورة ماضيها المحطم ، فلما داسته أحست انهـا تهوي في أعماق سحيقة بلا نهاية .

في هذه القصة الثورية التي فارت في صورها المعاني وتشاكست وتلاقت ألفاظ محمومة متعادية اختلط الحقد بالتوتر والانسانية بالوحشية في نفس الفتاة الناقمة التي رأت ذاتها مترديه في الهاوية ، وهي عنوان القصة التـي كتبتها غادة بلمعات ابداعية وفنية .

على اني لا اخالي هذا المقال من نقد لهذه المجموعـــة وهو الذي كانت تنتظره القصصية الناجحة ، اذ ان الثناء وحده طالما كان شوكا في طريق التطور وكم من كاتبـــة وشاعرة وقصصي وأديب ماكاد يمضي على هدى موهبته حتى أفسد الملق فنه وتجاريبه .

اما النقد الذي أوجهه لهذه المجموعة بعد الحفاوة بمطلع صاحبتها فهو ان العنوان لم يسلم من تنافر الالفاظ على مصطلح البلاغة ، واما الاسلوب الاصيل فقد شابتـه تلك الوقفات المندفعة المتقطعة التي حرمت الجملة حـروف العطف ، وكان العطف حاملا معناه النفسي والانساني ، ففي تناثر العبارة وبعدها عن الترابط مضيعة للعطف بينهـــا واحلال للتجافي ، فكما يتعاطف الانسان مع الانسان ، كذلك حياة الكلمات على السطور ، وهذا التخطف في التعبيـــر موجة جديدة وافدة شاعت في الشعر والنثر لدى طائفة من أدباء الشباب ، كان من سماتهم القلق فـي التفكيـــر والاداء ، وهو تعبير متلاحق متقطع الانفاس لكنه غيـــر متلاحق ، وهو يشبه الصور التي تعرض بالفانوس السحري اذ ان كل صورة على جمودها لاتتصل بالاخرى ، فأيـن من ذلك مشاهد السينما الحية الناطقة التي تشبه التعبير السلس المترابط ؟

وقد دلت هذه المحاكاة الشائعة على استهانة بأصول الكتابة التي يتأبى عليها بعض المتعجلين ، ولو عرف هؤلاء فن الوصل والفصل في البلاغة العربية لما فضلوا هـــذا التخطف والتخفف في التعبير الوافد الذي اخذ يسري في ادب القصة الغربية التي تحتذي التكعيبية في مذهبها ، وكتابها ينفلتون بألوانهم على هواهم في التعبير عن نقمتهم على العادات السائدة ، وقد اتخذوا الوصف المتقطع وسيلتهم الى الانطلاق دون التقيد بفكرة يدورون حولها .

وما كانت القصصية غادة السمان في أدبها النضر متعجلة ولا مرتجلة لكن مياسم العصر في السرعة والقلـق لم تفلت من قصصها ، وما أرى هذه الملحوظة تغـض مـن قيمة المجموعة التي بشرت بموهبة اصيلة ، وقد كنـــت ارغب للعينين اللتين يسكن فيهما القدر على حد تسميـــة غادة كحلا طبيعيا لا تكحلا مصنوعا كما قال الشاعر القديم .

وداد سكاكيني

دار الاداب تقدم

دُرُوبُ الحرّية

رائعة الكاتب الوجودي الكبير

جان بول سارتر

في اجزائها الثلاثة :

سـن الرشـد
وقف التنفيـذ
الحزن العميـق

نقلها عن الفرنسية نقلا امينا دقيقا
الدكتور سهيل ادريس

* نموذج الادب الوجودي في مفهومه الصحيح العميق
* تحفة ادبية يجب ان لا تخلـو منها مكتبة

سن الرشد : ٥٥٠ ق.ل
وقف التنفيذ : ٦٥٠ ق.ل
الحزن العميق : ٥٥٠ ق.ل